الثورة الحسينية وتغيير أخلاقيّات الهزيمة

عاشوراء بين منطق النهضة وثقافة البكاء

آية الله السيّد محمود الهاشمي الشاهرودي (\*)

كلمة الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر(قدس سره)، ألقاها سماحة آية الله السيّد محمود الهاشمي في مكتبة الإمام الحكيم العامّة في محافظة الديوانيّة بتاريخ 2/7/1975م، بمناسبة الموسم الثقافي في عاشوراء، تنشرها المنهاج للمرّة الأولى، بعد أن صحّحها وحققها الأخ العزيز الشيخ أحمد أبو زيد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

أيّها المؤمنون المفجوعون بمصاب إمامهم!

إنّكم تعيشون في هذه اللحظات ذكرى الإمام الحسين(عليه السلام)، ذكرى هذا الإمام الممتحن الذي تسلّم مسؤوليّة الإمامة وإعلاء الرسالة في أحرج مرحلة من مراحل المؤامرة، المؤامرة التي دبّرتها الجاهليّة المبرقعة ضد الإسلام؛ فإنّ بقايا الجاهليّة التي استطاعت أن تلملم نفسها وتجد من الأمويّة قيادتها، أدركت بوضح أنّها خسرت جولتها الأولى ضدّ الإسلام حينما دخلت معه في حرب سافرة، فغيّرت من أساليبها ودخلت الحرب ضدّ الممثّلين الحقيقيّين للإسلام، ضدّ عليّ وآل علي(عليهم السلام)، ببراقع مصطنعة من الإسلام الحزين.

وقد تمكّنت بذلك أن تكسب المعركة في إطارها العسكري، غير أنّ الأمويّة كانت تعرف ـ وتعرف بوضوح ـ أنّ الانتصار العسكري على الإسلام الحقيقي الممثّل في أهل البيت(عليهم السلام) لا يمكن له وحده أن يضمن نجاح المؤامرة في مداها الواسع وعلى الخط الطويل؛ لأنّ التغلّب بالقوّة على إرادة أمّة وابتزازها حقّها لا يعني نصراً نهائياً ما دام هناك ـ رغم القوّة ـ أمّة تملك إرادتها المقهورة وتعي شخصيّتها وتتملّل بجراحها بكبرياء؛ ولهذا اتّجهت الأمويّة بعد انتصارها العسكري عام الأربعين إلى أعظم سرقة يمكن أن يمارسها إنسان، وماذا أعظم من أن يخطّط الانحراف الحاكم يومئذٍ ـ وعلى رأسه معاوية ـ من أجل أن يسرق من الأُمّة إرادتها وينتزع منها شخصيتها وكبرياءها، ليحقّق بذلك نصره النهائي، ويضمن له البقاء والامتداد؛ لأنّ الاستسلام الحقيقي للأمّة ليس بإلقائها السلاح فترة من الزمن أمام الغاصب المنحرف، بل بتنازلها عن إرادتها وشخصيّتها.

وقد استطاع معاوية أن ينتزع قدراً كبيراً من هذا الاستسلام، ولعلّ أقسى تعبيرٍ عمّا وصلت إليه الأمّة من انهيار واستسلام حقيقي نتيجة هذه المؤامرة ما قاله الوافدون على الحسين (عليه السلام) من الكوفة: «أنّ قلوبهم ـ يعنون قلوب أهل الكوفة ـ معك وسيوفهم عليك» (1)؛ لأنّ من لا يملك إرادته تتحرّك يده باتجاه معاكس لقلبه، فكأنّه لا بدّ للإمام الحسين (عليه السلام) في تلك المرحلة الرهيبة أن يحمي الأمّة وإرادتها من الانهيار الكامل الذي يحقّق لخصوم الإسلام نصرهم النهائي. وإذا لم يكن متاحاً للإمام(عليه السلام) يوم عاشوراء ـ وهو في سبعين رجلاً من أصحابه ـ أن يحبط مؤامرة الأمويّين على السلطة ويستردّ عنهم الحكم الذي سرقوا، فقد أتيح له أن يحبط مؤامرة الأمويّين على إرادة الأمّة، ويمدّها بطاقة عظيمة تحصّنها ضدّ الذوبان والانهيار.

وكان الأسلوب الوحيد لذلك أن يقف الإمام الحسين(عليه السلام) بنفسه أمام الطغاة الذين سرقوا من الأمّة إرادتها، ويتحدّاهم بكلّ صمود وثبات وبيأسٍ كامل من إمكانات النصر العسكري؛ لكي يضرب بوقفته المستميتة المثل الأعلى لإرادته الحيّة التي لا يمكن أن تضعف أو تلين، ويقدّم لذلك ثمناً أزكى الدماء وأطهرها، يقدّم دماء الصفوة من أولاده وأهله وصحبه، ثمّ يخرّ صريعاً في الساحة. وتظلّ إرادته فوق الموت وفوق سيوف السفّاكين لكي تمتدّ وتمتدّ فوق ضمير الأمّة ووجدانها، وتزرع الشوك في طريق الجبابرة والظالمين.

أيّها المؤمنون! يا شيعة الحسين!

إنّ إمامكم العظيم حينما كان ينزف دماً، حينما تحمّل الحرمان حتّى من ماء الفرات، وقد كانت الدنيا بين يديه، حينما يزداد وجهه بشراً وطلاقة كلّما قدّم قرباناً جديداً من ولده وأهله، حينما ضّحى حتّى بولده الرضيع الذي قتله السفّاكون وهو في حجره، حينما كان يخرّ إلى الأرض ثمّ يقوم ليواصل الحرب، وحينما لقط أنفاسه الطاهرة على أرض كربلاء، [حينها] لم يكن الإمام الحسين(عليه السلام) في ذلك كلّه يمارس عمليّة قتال مقيت فحسب، بل كان ينبّه أمّة ويحمي إرادة ويمتدّ مع تاريخ رسالة، ويقود مسيرة المجاهدين من أجل الإسلام في كلّ زمان ومكان.

أيّها المؤمنون!

إنّ صمود الإمام الحسين وتضحيته يجب أن يُشعرا المسلمين جميعاً بقيمة هذا الدين العظيم الذي كان جديراً بهذه التضحية، وأن يذكّرهم بمسؤوليّاتهم تجاه عقيدتهم ورسالتهم؛ فليست عاشوراء يوم عزاء ومصيبة فحسب، بل هي مدرسة غنيّة بعطائها، تلهم المسلمين في كلّ حين القوّة والعزيمة، وتمدّهم بزخمٍ فكري وعاطفي.

ولئن كان الإمام الحسين(عليه السلام) قد وقف موقفه العظيم من أجل إرادة الأمّة وحمايتها من الانهيار، فإنّ مدى تجاوب الأمّة مع هذا الموقف ووعيها لمضمونه وأهدافه هو الذي يحدّد درجة إرادة الأمّة وأصالتها، وبقدر ما تستوعب الأمّة من دور الحسين وتتفاعل مع رسالته الكبيرة وتلتزم بتعاليمه وتثبت إرادتها الحقيقيّة وشخصيتها الأصليّة وحرصها على الأمانة الغالية وكلّ ما تحويه من قيم ومفاهيم وأحكام.

هذه آخر ليلة ودّع فيها الإمام الحسين(عليه السلام) عالم الأحياء، غير آسف على شيءٍ سوى رسالته العظيمة التي عاش لها عمره، وذاك هو قدرُ المجاهدين أبداً.

[لقد] قدّر للإمام الحسين (عليه السلام) أن يعالج مرض الشك في الأمّة الإسلاميّة التي بدأت في عهد أمير المؤمنين(عليه السلام) تشكّ في الخط الرسالي النظيف الذي سار فيه أهل البيت(عليهم السلام) قدماً على قدم وراء رسول الله(صلي الله عليه و آله و سلم)، [وقد] استفحل هذا الشك حتّى تحوّل في عهد الإمام الحسين(عليه السلام) إلى حالة مرضية لم يمكن علاجها حتى بالتضحية. وبينما قدّر للإمام الحسن(عليه السلام) أن يعالج مرض الشك في الأمّة الإسلاميّة، عالج الإمام الحسين مرضاً آخر، هو انعدام الإرادة مع وضوح الطريق.

فالأمّة التي جاءت تشكّ في المعركة القائمة داخل الإطار الإسلامي بين الجناحين المتعارضين اتضحت لها معالم الطريق، لكن بعد أن نامت وتحوّلت إلى رعيل من التنابلة، وبعد أن استطاع الذين سرقوا شخصيّتها وزوّروا إرادتها ومزّقوا كبرياءها أن يجعلوها غير قادرة على تغيير موقفها.

إنّ فقدان الإرادة كان مرضاً عالجه الإمام الحسين القائد بالسلوك الذي عرض آخر حلقة منه يوم عاشوراء المجيد، وإذا كان مقدّراً أن يكون علاج هذه الظاهرة هو التضحية، فإنّ التضحية يجب أن تكون عميقة عمقَ المرض في جسم الأمّة، واسعة سعةَ كيانها.

عندما اتّجه الإمام الحسين(عليه السلام) إلى العراق لاستسلام مسؤوليّاته العظيمة باعتباره ثائراً على الاحتلال الجاهلي الرجعي، تلقى(عليه السلام) سيلاً من النصائح ممّن يسمّونهم يومئذٍ «عقلاء المسلمين»، الذين يبغضون التهوّر، والذين أجمعوا على أنّ تصرّفه(عليه السلام) ليس تصرّفاً طبيعيّاً، فخوّفوه بالموت وحدّثوه عن النتائج التي جناها الإمام علي والإمام الحسن(عليهما السلام) في صراعهما الساخن ضدّ الأمويّين ومنّوه بالسلامة، أُولئك الناصحون ـ وهم أهل الحل والعقد في المجتمع ـ لا يتصوّرون التضحية إلاّ كتصوّر الطفل للبحر، وكانت نصائحهم ترسم لوحة الانهيار النفسي العميق الذي شمل زعماء المسلمين، كعبد الله بن عبّاس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن جعفر، فضلاً عن الجماهير التي كانت تعيش الانهيار مضاعفاً في سلوكها وقيمها.

لقد واجهت الحسينَ هذه السلبيةُ المطلقة برغم التوقان للخلاص، وبرغم تمتّع الثائر العظيم بكلّ معاني المنقذ قدرةً وإخلاصاً وتصميماً.

انظروا معي رجاءً!

هؤلاء ستّة من زعماء البصرة من الذين كانوا يرتبطوا بمدرسة الإمام(عليه السلام) ويشعرون بالولاء لمفاهيمها ولأهدافها كتب إليهم الإمام الحسين(عليه السلام) رسالة يستصرخهم فيها، مذكّراً بالخطر الذي يواجهه الإسلام متمثّلاً بدكتاتوريّة الأمويّين القراصنة الإرهابيّين، فماذا كان ردّ الفعل على تلك الرسالة؟ لقد كان ردّ الفعل خيانة خمسة ـ بكلّ معنى الخيانة ـ واستجابة شخص واحد هو عبدالله بن مسعودالنهشلي.

صدّقوا أنّ هؤلاء الذين خانوا لم يحبّوا الأمويّين ولم يؤمنوا بخطّهم، بل كانوا علويّين فقدوا كل مضمونهم عندما فقدوا إرادتهم. وخيانة هؤلاء الزعماء أو برودهم تعبيرٌ صادق عن أخلاقية الأمّة المهزومة؛ فإنّ الأمّة في حال تعرّضها للهزيمة النفسيّة وفي حالة فقدانها لإرادتها وعدم شعورها بوجودها بوصفها أمّة تنشأ لديها تدريجاً أخلاقيّة معيّنة هي أخلاقية الهزيمة، وأخلاقيّة الهزيمة هذه تصبح قوّة كبيرة جداً بيد صانعي هذه الهزيمة، لابقاء هذه الهزيمة وتصحيحها وتوسيعها، فيصبح الإقدام تهوّراً ويصبح الاهتمام بما يقع على الإسلام والمسلمين من مصائب ومحن نوعاً من اللاعقلائيّة.

وأخلاقية الهزيمة هذه تصطنعها الأمّة لتسويغ الهزيمة ولتشعر بأنّ مقاومتها انتهت وقرأت عليها الفاتحة، فتنسج مفاهيم جديدة غير مفاهيمها الأولى، وتتبنّى قيماً وأهدافاً غير التي كانت تتبنّاها، أو لكي تبرّر موقفها أخلاقيّاً ومنطقيّاً؛ لأنّها لا تشعر بكرامتها.

والإمام الحسين (عليه السلام) أراد أن يبدلّ هذه الأخلاقية المنحطة لهذه الأمّة ويضع أخلاقية تنسجم مع القدرة على التحرّك والإرادة حينما كان يقول: «لا أرى الحياة مع الظالمين إلاّ برماً» (2).

ولم يكن هذا الأمر شكوى مجرّدة، بل كان عملية تغيير لإيجاد ـ أو في الواقع لإرجاع ـ هذه الأخلاقية العظيمة التي فقدها كلّ الناس الذين مشوا في [هذا] الشارع الطويل.

مثالٌ آخر، حبيب بن مظاهر: فها هو يستأذن من الحسين (عليه السلام) ليدعو عشيرته بني أسد للالتحاق بركب الجهاد، ومع معرفة كل المسلمين لحبيب في مواقفه الجهاديّة وبياض تاريخه في ورعه وتقواه، أجابه بنو أسد بإخلاء ديارهم والانسحاب جميعاً قبل طلوع الفجر. يرجع حبيب ويبلّغ الإمام(عليه السلام) بهذه النتيجة الأسطورية، فبنو أسد كانوا يخشون حتى من كونهم على الحياد، فغادروا المنطقة نهائيّاً، ولم يكن جواب الشهيد الممتحن(عليه السلام) إلاّ أن قال: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله العظيم» (3).

هذا السكون في الضمير، هذه الهزيمة في المأساة هي مرض الأمّة الذي انبعث إمامكم العظيم ليعالجه. كانت الأمّة تشفق على علفها الرخيص، على أنفاسها التي تصعد في ذلّ وحرمان وقد لا تنزل، أمّا الشفقة على الوجود الكلي، على الكيان والعقيدة فلم تمرّ بخواطر الدمى أبداً؛ لأنّها تكلّف غالياً.

كلّ هذه المظاهر دليل على ما وصلت إليه الأمّة من انحلال، أضف إلى ذلك الاندفاعات نحو خطّ السلطان، فخلال أسبوعين أو ثلاثة بعد مقتل مسلم(عليه السلام) استطاع ابن زياد تجنيد عشرات الألوف من أبناء ذلك البلد الذي ظلّ يحمل رسالة علي(عليه السلام) حتى ذلك الحين، واستخدم مئات من الذين شاركوا الإمام علي في جهاده بصفين، ومن الذين استجابوا لعمرو بن الحجاج وكان مضطهداً في سبيل الإمام علي(عليه السلام) أيّام زياد، لكنّه لم يستطع مواصلة المحنة، طلّق عقيدته قبل أن يصل إلى آخر الشوط؛ ليشتري بعقيدته دنيا واسعة. هذا المسكين انتهت إرادته، انتهت شخصيّته بوصفه إنساناً مسلماً يفكّر بالإسلام، بعزّة الإنسان، فكلّفه قائد الاحتلال الجاهلي الرجعي بأسوأ مهمّة يكلّف بها إنسان، كلّفه بأن يحول بين الماء وسيّد الشهداء وصحبه الميامين.

وتعال نشقّ عُباب الأسى لنرى كيف طوّق مسلم بن عقيل قصر الإمارة حيث ابن زياد ومعه ثلاثون أو عشرون شرطيّاً، ومسلم معه أربعة آلاف مسلّح ليست لهم قلوب، ليست لهم أيدٍ. في الواقع لم تكن هذه الأربعة آلاف إلاّ دمى متحرّكة من الخارج، وإلاّ فلماذا انهزموا عنه؟! وكان في الأقل أن يبقى معه ولو شخص واحد يدلّه على الطريق، لكن عبثاً، فالتاريخ يحدّثنا أنّ المرأة حينئذٍ كانت تأتي فتنتزع زوجها أو أباها وأخاها قائلة: لا شغل لكم بالسلاطين، ونهاية فقدان الإرادة [أن] يستسلم الرجل ويذوب.

قال المفكّرون: إنّ من لا يملك إرادته تتحرّك يده باتّجاه معاكس لقلبه وعاطفته، لذا رأينا الناس يقتلون الإمام الحسين(عليه السلام) وهم يبكون عليه؛ لشعورهم بأنّ قتلهم إيّاه معناه قتل آخر أمل في الانعتاق، لكنهّم لم يستطيعوا أن يغيّروا موقفهم فينصروه.

وعلى كلّ حال فالإمام الحسين (عليه السلام) ليس إنساناً محدوداً بسنة كذا وكذا، بل هو الإسلام ككل، أي هو كلّ الأهداف التي ضحّى من أجلها؛ لأنّها روحه وعقله وقلبه وعواطفه.

وإذا كان أهل الكوفة [قد] قتلوا الحسين(عليه السلام) وهم يبكون، فهناك خطرٌ كبيرٌ في أن نصاب بالمحنة نفسها، أقصد أن نقتل الحسين(عليه السلام) ونحن نبكيه، فالبكاء لا يعني أنّنا غير قاتلين للحسين(عليه السلام)، ولو كان البكاء وحده يعني أنّ الإنسان غير قاتل للحسين(عليه السلام) لبرئ عمر بن سعد؛ لأنّه بكى الحسين(عليه السلام) بنفسه بكاءً مرّاً.

في موكب السبايا حينما مرّت العقيلة زينب(عليها السلام) على الضحايا، التفتت إلى أخيها، اتجهت إلى جدّها الرسول(صلي الله عليه و آله و سلم) تستنجده مخبرةً عن جثمان الإمام الحسين(عليه السلام) تسفيه الرياح، عن السبايا وهنّ مشتّتات، عن الأطفال عطشى وهم مقيّدون، حينما أخبرت جدّها بكلّ ذلك ضجّ القتلة كلّهم بالبكاء، بكى السفّاكون، بكى هؤلاء الذين أوقعوا هذه المجازر، بكوا أنفسهم.

إذن فالبكاء ليس ضماناً، والعاطفة وحدها ليست ضماناً لإثبات أنّ صاحب العاطفة لا يقف موقفاً يقتل فيه الإمام الحسين(عليه السلام) أو يقتل فيه أهداف الحسين.

لا بدّ من امتحان، لا بدّ من تأمّل، لا بدّ من تعقّل لكي نتأكّد من أنّنا لسنا قتلة لأبي الشهداء(عليه السلام). أمّا مجرّد أنّنا نحبّ الحسين، نزوره، نبكي عليه، كل هذا شيءٌ راجح، لكنّ هذا الراجح لا يكفي ضماناً لإثبات أنّنا لا نساهم في قتل الحسين؛ لأنّ بإمكاننا أن نقوم بكلّ هذا عاطفيّاً، مع أنّنا نساهم في قتل الحسين(عليه السلام).

يجب أن نحاسب أنفسنا ونتأمّل في سلوكنا ونعيش موقفنا بعمق وانفتاح على كلّ المضاعفات والملابسات، لنتأكّد من براءتنا من قتل الحسين(عليه السلام) بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، ولكي نعيش دائماً تلك التضحية ونعيش مدلول هذا الدم الطاهر.

وغفر الله لنا ولكم، وعظّم الله أجوركم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(\*)أحد الفقهاء البارزين، ورئيس السلطة القضائية في إيران.

(1)دلائل الإمامة: 74.

(2)بحار الأنوار 44: 192.

(3)المصدر نفسه 44: 387